تأصيل المصطلح بين الثقافة والمثاقفة

الباحث حسن العاصي

القسم الأول: الثقافة

أولاً تعريف الثقافة Culture Definition

تؤثر الثقافة بصورة مهمة في تكوين شخصيات الأفراد والشعوب، وفي تشكيل سلوكياتهم واتجاهاتهم، بذلك تكون الثقافة أحد المداخل الرئيسية للتأثير على البشر، ولإحداث تغيير في وعيهم وسلوكياتهم ومن ثم التحكم في تحديد وتحقيق الأهداف المتوخاة من التحول المراد فعله.

تعتبر الثقافة في أحد جوانبها نافذة لبدء حوارات وتواصل تراعي احترام العقل وتصون حقه في القبول والرفض، لذلك جاءت الرسالات السماوية خالية من القسر في الاتباع، لأنها في الأصل رسالات ثقافية.

الثقافة واحد من أبرز المقاييس التي يجري اعتمادها في تصنيف الأمم والمجتمعات، والتفريق فيما بينها في مستوى المضامين الثقافية والفكرية وخصائها ودلالاتها السياسية، والاجتماعية، والإنسانية، والعلمية. اتساع وشمولية الثقافة جعل من تعريفاتها متعددة ومتنوعة في المفهوم والمعنى والمصطلح، فمنذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر لغاية منتصف القرن العشرين ظهرت كثير من التعريفات للثقافة في إطارها العام، أو في ارتباطها بالفكر والعلوم وكافة مفاصل الحياة، نظراً لكون الثقافة تعكس واقع وتطور المجتمعات البشرية، وإنتاجها الفكري والعلمي والإبداعي.

يعتبر المفكر الأمريكي "جون سيرل" John Searle أن اللغة خطيرة في أدوارها الاجتماعية "لأنها

تصنع وتزيف أفكار تتحكم بنا فتجعلنا اقوى أو أضعف. [1]"

الأسئلة عما هي الثقافة، ومن أي شيء تتكون، ومن أين تأتي، وماهي علاقاتها بالبشر أفراداً وجماعات، وكيف تؤثر في سلوكيات البشر، كيف ترتبط الثقافة بالعلوم، ماهي صلتها بالهوية وبالأنا والأخر، من يصنع الآخر الثقافة أم البيئة، تفاعل الثقافة مع الأديان والمعتقدات كيف تكون ومن يؤثر على الآخر وكيف، مكانة الثقافة ودورها التاريخي في المجتمع...؟ عشرات الأسئلة شكلت محور اهتمام العلماء والمفكرين وخاصة علماء الاجتماع والنفس والفلسفة والأنثروبولوجيا والأدب والإعلام منذ نهاية القرن التاسع عشر. ورغم التطور التكنولوجي الذي اكتسح القطاعات كافة. في العصر الحديث حيث تمت عولمة كل شيء تقريباً، إلا أن الثقافة وما يرتبط بها من الدراسات الاجتماعية لا زال يستحوذ على اهتمام المفكرين والباحثين.

يهدف هذا الفصل من الدراسة إلى الكشف عن أهمية الثقافة ودورها في تشكل الهوية والانتماء إلى جماعة ما، ووظيفة الثقافة في المجتمع وكيف تتشكل، ثم معرفة الكيفية التي تؤثر فيها الثقافة على سلوكيات الأفراد داخل المجتمع الواحد وفي علاقتهم مع الآخرين.

قبل ذلك تجب الإشارة مصطلح الثقافة المتداول في الأوساط الإعلامية والفكرية والسياسية، حيث تؤثر كلمة الثقافة في تلك الميادين تأثيراً هاماً. والخلط الذي يحصل أحياناً في التعامل مع المصطلح ودلالاته يؤدي إلى إغلاق أبواب التواصل بين المتحاورين في المجتمع ذاته، وبينهم وبين الأفراد والجماعات والشعوب والأمم الأخرى.

كانت التعريفات الغربية تتقاطع في تعريفها للثقافة على أنها بوجه عام حالة مجتمعية إضافة لكونها فردية. حيث تكون ثقافة الشعوب عبارة عن منظومة العادات والتقاليد والأخلاق والقانون ونمط المعيشة، وكل ما ينتجه أفراد المجتمع، بغض النظر عن درجة تطور هذا المجتمع، لأن ثقافة المجتمع هي انعكاس لواقعه.

المتتبع للأوساط الإعلامية والفكرية الغربية يلحظ نوعاً من الإقصاء للآخر، حين تستخدم تلك المراكز مصطلح الثقافة والمثقفين والأوساط الثقافية كإشارة للدلالة على الغرب ويُستثنى منها الآخر غير الغربي. هذا الأمر يتعارض في الأصل مع مفهوم الثقافة التي تتولد من واقع المجتمع . اي مجتمع . وتكون

---

[1] سيرل، جون، بناء الواقع الاجتماعي من الطبيعة إلى الثقافة، ترجمة حسنة عبد السميع، ط 1، الهية المصرية للكتاب، القاهرة 2012، ص 19.

معبراً عنه. فلا يمكن أن يتم إقصاء جماعة ما من نادي الثقافة كونها لا تنتمي إلى عصر العولمة. هذا يعود لأن "الثقافة نظرية في السُلوك أكثر من أن تكون نظرية في المعرفة، وبهذا يمكن أن يُقاس الفرق الضروري بين الثقافة والعلم"[2].

رغم أن تفسير ومفهوم الثقافة، والأثر الذي تحدثه في البشر يكون مختلفاً من فرد لآخر ومن جماعة لأخرى، إلا أنه من المهم إيجاد أشكال للتواصل والتقارب بهدف خلق حوار لوضع تصورات مشتركة.

إن اللغة بصفتها وسيلة التواصل الاجتماعي والحضاري، تمتلك قوة هائلة في جميع الخطابات وأشكال التواصل الاجتماعي والسياسي والإعلامي والتربوي، حيث يمكن أن تكون أداة تواصل إيجابي ووسيلة تفسير وشرح وتقارب وجذب وتعاون وتعايش ومحبة، ويمكن لها كذلك أن تتحول إلى أداة تضليل الحقائق وتشويهها وإخفائها.

ثانياً: مفهوم الثقافة: Culture concept

الثقافة Culture مصطلح حديث نسبياً نشأ في الغرب، ترافق ظهوره مع بروز علوم الإنسان وعلم النفس. لا يتفق النقاد والمفكرين ولا المؤرخين على تعريف ومفهوم واحد للثقافة. تعددت مفاهيم الثقافة وفقاً لدورها ودلالاتها في العلوم، مثل علم الاجتماع، والنفس، والتربية، والأدب. ثقافة الإنسان هي عبارة عن كل ما اكتسبه الفرد من بيانات ومعلومات وحقائق ترتبط بواقع وعلوم الحياة، وتتيح له التفاعل مع محيطة المجتمعي. وثقافة الشعوب والأمم هي كل إنتاج الأمة الإبداعي في كافة العلوم والقطاعات، وهو تراثها الحضاري والفكري، وهويتها التي تميزها عن بقية الأمم. وفي الإطار العام فالثقافة هي منظومة متكاملة متناسقة من الأفكار والأخلاق والقيم والمعتقدات والعلوم والفنون والمهارات وأنماط الحياة والتراث، الثقافة عامة هي كل ما ينتج الإنسان ويتصل بالعالم الخارجي، في كافة مراحل التاريخ. الثقافة فعل جماعي للأمة في كافة القطاعات، يشارك في إنتاج وبلورة هذه الثقافة كافة الأفراد والمجموعات كل حسب موقعه ومهنته وقدرته على العطاء والإبداع.

بل إن الثقافة، بمعناها الأشمل، تشارك فيها جميع الأمم والحضارات كافة لتكون ثقافة إنسانية لا

---

[2] بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط1، دار الفكر، دمشق 1986، ص 82.

تخص أمة بعينها. "إن الثقافة تعتبر على نحو ما متفقة بين المجتمعات، وعلى نحو ما مختلفة كذلك. فإذا نظرنا إليها على قدر عال من التجرد، نجد قدراً كبيراً من التشابه بين الثقافات. أو بمعنى آخر إنه الاتفاق في العموميات والاختلاف في التفاصيل"[3]

حاز مصطلح الثقافة في الأدب الأوروبي خلال القرن العشرين بمساحة واسعة. وما لبثت الكلمة أن أصبحت تترافق مع معظم العلوم الاجتماعية والإنسانية. كثير من المفكرين والعلماء صاغوا تعاريف ومفاهيم للثقافة، كأن تمثل الثقافة سلوكاً بشرياً تعلّمي يتحصل عليه الأفراد من المجتمع الذي يعيشون فيه. علماء الأنثروبولوجيا تقاطعت تعريفاتهم على أن الثقافة في الحصيلة هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والاعتقادات والقانون والأخلاق والعادات الاجتماعية.

من التعريفات القديمة للثقافة وربما أكثرها انتشاراً، المفهوم الذي قدمه العالم البريطاني التطوري النزعة "إدوارد بورنث تايلور" مع نهاية القرن التاسع عشر، في كتابه "الثقافة البدائية Primitive Culture حيث اعتبر أن الثقافة هي "كل مركّب يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانيات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في مجتمع"[4]

يتحدد مفهوم الثقافة وفقاً لوظيفتها المجتمعية، حيث تترابط وتتلاقح دلالات الثقافة ومفاهيمها مع العلوم الاجتماعية، فهي كانت تعني طقوساً دينية وزراعة الأرض في القرون الوسطى، وفي القرن الثامن عشر تطورت باتجاهين، الأول ثقافة شخصية وتعني التكوين المعرفي للفرد، والثاني ثقافة عامة وهي التي تشكل عناصر الهوية الجمعية لأي شعب أو أمة.

ارتباطاً مع ظروف كل مجتمع، فإن المنظومات السلوكية التي تحكم معايير المجتمعات البشرية تختلف بصورة نسبية من مجتمع لآخر، وإن كان داخل إطار الثقافة الواحدة. على سبيل الذكر الثقافة الإسلامية أو العربية وما تتضمنه من خصوصيات ترتبط بالعوامل الجغرافية وتنوع الأعراق.

إن مفهوم الثقافة يختلف ويتمايز بين الحديث عن ثقافة شعب أو أمة، أو عند الحديث عن الثقافة

---

(3) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، المجلس الأعلى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد 223، الكويت 1978، ص 8.

(4) Edward Burnett Tylor, Primitive Culture, Vol. 1 of 2(Classic Reprint) – 18 May 2012, P. 33.

الشخصية التي نعني بها ثقافة الفرد ومستوى تعليميه ووعيه العلمي والمعرفي الاجتماعي، ودرجة درايته بالأدب والفلسفة والفنون المختلفة والسياسة، ومدى اطلاعه على الحياة العصرية وأدواتها.

بينما ثقافة الجماعة فتشمل إضافة إلى مجمل إنتاجها الإبداعي في كافة العلوم، الطباع العامة، العادات والتقاليد المتعلقة بالأفراح والأحزان والطعام والأزياء وأسلوب الحياة. بهذا يمكن النظر للثقافة على أنها كتلة من المعارف والسلوكيات المكتسبة في قالب اجتماعي واحد.

يعتبر عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي "كلايد كلوكهون" Clyde Kluckhohn الثقافة أنها " مجموعة طرائق الحياة لدى شعب معين، أي الميراث الاجتماعي الذي يحصل عليه الفرد من مجموعته التي يعيش فيها، أو الجزء الذي خلقه الإنسان في محيطه وهي التي تحدد الأساليب الحياتية، أو هي طريقة في التفكير والشعور والمعتقدات، إنها معلومات الجماعة البشرية محفوظة في ذاكرة أفرادها أو في الكتب أو في المواد والأدوات"[(5)]

بعض الناس يستخدم كلمة الثقافة في الحياة العامة للدلالة على الوعي والمعرفة، وممارسة عادة قراءة الصحف والكتب، والذهاب إلى المسارح والمتاحف، ومزاولة أعمال وأنشطة فنية ما أو العزف على آلة موسيقية، يدخل هذا المفهوم في السلوكيات الاجتماعية التي تقسم النسا إلى فئتين الخواص أو النخبة Elit والعوام .common people

ومن التعريفات الواضحة والشاملة للثقافة ما قدمه الشاعر الأمريكي "توماس ستيرنز إليوت" Thomas Stearns Eliot الذي قام تحليل تاريخي لعلاقة الثقافة بالفرد والمجتمع وبالعلوم الأخرى المختلفة. وتناول علاقة الثقافة وبالأديان، وفنّد في هذا السياق خطأين يرتبطان ببعضهما أولهما "أن الثقافة يمكن حفظها وتنميتها بغير دين. وهذا خطأ قد يشترك فيه المسيحي مع الكافر" والثاني "الاعتقاد بأن المحافظة على الدين ورعايته لا شأن لهما بالمحافظة على الثقافة ورعايتها" [(6)]

وأكد أن "الفرد الكامل الثقافة هو محض خيال" واعتبر أن "ثقافة الفرد لا يمكن فصلها عن ثقافة الفئة، وأن

---

(5) عارف، نصر محمد، الحضارة الثقافة المدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2، عمان الأردن 1994، ص 20.

(6) توماس إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة شكري عياد، إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، القاهرة2001، ص43.

ثقافة الفئة لا يمكن تجرد من ثقافة المجتمع" [7]

في كتاب الثقافة والمقاومة يشرح "إدوار سعيد" أهمية الثقافة كفعل ممانع لمحاولات الهيمنة، وتصحيح الأكاذيب. من خلال كون "الثقافة تمثل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإزالة والإقصاء. فالمقاومة شكل من أشكال الذاكرة مقابل النسيان. بهذا الفهم أعتقد أن الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمية" [8]

كثير من المفكرين المتخصصين، في علوم الأنثروبولوجيا والنفس والاجتماع، يتوافقون في الحديث عن مفهوم الثقافة عبر علاقته بالعلوم على أنها ثلاث مفاهيم رئيسة. الجانب الثقافي ويتضمن المعتقدات والأخلاق والقيم المشتركة بين الناس في مجتمع ما. ثم الجانب الاجتماعي ويشمل طبيعة العلاقات الفردية التي تربط افراد هذا المجتمع مع بعضهم على المستوى الشخصي. ثم طرق الحياة ووسائل وأنماط المعيشة للفرد والمجتمع، والتي تعكس التفاعلات الثقافية والاجتماعية كافة.

إن الثقافة، ببساطة، هي الطريقة التي يتبعها الناس في حياتهم، وهي كلمة تحمل دلالات فردية أكثر، بينما الحضارة تعبير عن الجماعة. من هنا تظهر الثقافة كطرف لابد من الإلمام به إن رغبنا التعرف على الحياة الاجتماعية للناس والشعوب وتفسيرها.

ثالثاً: ضبط المفهوم

تبدو مهمة ضبط المفهوم كما اتضح من تعدد وتنوع التعريفات السابقة، أنها عملية شاقة ولا تكاد أن تكون في متناول أي باحث، لكن سوف أحاول ما أمكن من ضبط مفهوم الثقافة حتى أتمكن من وضع منهجية للفهم والتيسير. فقد أحصى الفيلسوف البريطاني "ديفيد كوبر" E David Cooper وعالم الأنثروبولوجيا الأمريكي "كلايد كلوكهون" Clyde Kluckhohn في العام 1952 ما يقارب 164 تعريفاً للثقافة كونها سلوكاً متعلماً، في العقل، أو

[7] المصدر نفسه، ص33.

[8] سعيد، إدوارد، الثقافة والمقاومة، ترجمة علاء أبو زينة، دار الآداب، ط1، بيروت2006، ص143.

.

تشييداً منطقياً، أو رواية إحصائية، أو ميكنة الدفاع عن النفس، أو تجريداً من السلوك، أو ديناً بديلاً من حيث دورها في تحسين الحياة، أو طوباوية تَعدُ بتحقيق الذات وإقامة التفاهم بين الجماعات"[9]

هذا يعني أن ذكر مجمل التعريفات التي قدمها علماء ومفكرين وباحثين لكلمة الثقافة أمراً غير ميسر، ويقع خارج إطار هذا البحث. حيث يكفينا الإلمام بالدلالات الرئيسية لمفهوم الثقافة وجوهره وما يتضمنه، حيث إن هذا المصطلح تشعب وتوسع وتتداخل مع مختلف العلوم.

يعتبر محمد عابد الجابري انه "ليس مهماً كثيراً الانشغال بقضية تعريف الثقافة، فالإشكالية من وجهة نظر الجابري "ليس في الثقافة ذاتها، بل في الوعي بزاوية النظر التي يُنظر بها إليها. ذلك أن التعريف في جميع الأحوال، وسواء تعلق بالأشياء المادية، أو الأمور المعنوية، محكوم دوماً بالهدف الذي يريد الباحث أن يقرره أو يصل إليه"[10]

يعترف "سلامة موسى" Salama Mousa بإنه أول من ترجم هذه الكلمة ونقلها إلى العربية في بدايات اتصال الفكر العربي وتفاعله مع الفكر الغربي، حيث ذكر "كنت أول من أفشى لفظة الثقافة في الأدب العربي الحديث، ولم أكن أنا الذي سكّها بنفسه، فإني انتحلتها من ابن خلدون، إذ وجدته يستعملها في معنى شبيه بلفظ Culture الشائعة في الأدب الأوروبي"[11]

الثقافة هي كل ما أنتجه الأفراد والجماعات والشعوب والأمم في مختلف الميادين والعلوم، وكل ما يحدد طريقة حياتهم الاجتماعية. وهي عملية تمر بمرحلتين، الأولى هي المرحلة التي يتم خلالها ظهور الأفكار

---

[9] عارف، نصر محمد، الحضارة الثقافة المدنية دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 2، فرجينيا 1994، ص 22.

[10] الجابري، محمد عابد، المسألة الثقافية في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، بيروت 1994، ص 212.

[11] موسى، سلامة، الثقافة والحضارة، مجلة الهلال، منشورات الهيئة المصرية العامة، القاهرة 1927، ص 171.

والتصورات، والثانية مرحلة العمل والإنتاج.

رابعاً: أبرز خصائص الثقافة:

1. **إنسانيتها**: فهي فعل خاص بالبشر، لأنه مرتبط بالإبداع والإنتاج الذي يستخدم العقل، ولا وجود لثقافة دون وجود الإنسان.

2. **اجتماعيتها**: فهي الوسيلة التي يمتلكها الإنسان للتكيف مع المتغيرات التي تحدث في البيئة الاجتماعية، فالإنسان يكتسب ثقافة مجتمعه منذ صغرة، ويشارك لاحقاً في الإنتاج الثقافي.

3. **تراكميتها**: الثقافة فعل ونشاط وإنتاج إنسان اجتماعي متواصل ومستمر وتراكمي تاريخياً، حيث تنتقل الثقافة بين الأجيال، وقد ترحل إلى أماكن خارج بيئتها الأصلية، وبذلك لا تعود الثقافة ملك أحد، بل ملكية جماعية.

4 . **نسبيتها**: لا وجود لقبول أو رفض كلي لثقافة ما. الأمر هنا نسبي بسبب اختلاف العادات والسلوكيات والمفاهيم والمعتقدات وأنماط الحياة بين جماعة وأخرى، لهذا فإن ما قد يكون مقبولاً في بيئة ومجتمع ما، قد يكون مرفوضاً في مجتمع آخر والعكس صحيح أيضاً.

5. **فكريتها**: حيث لا يمكن إنتاج شيء إنساني دون وجود تصور وفكرة مسبقة عنه وعن الحاجة إليه ووظيفته.

6. **تداخليتها**: الثقافة لا تتكون من عناصر ومعطيات منفصلة عن بعضها البعض، لكن الثقافة تتشكل عبر علاقة النشاطات كافة، وتداخلها وتشابكها، والإنتاج المعرفي والأفكار فيما بينها في مجتمع ما.

7. **ثرائها**: تتميز الثقافات فيما بينها كثيراً بمضامينها ودلالاتها، كونها صفة ملاصقة لبيئة ومجتمع ما. واحياناً يكون الاختلاف فيما بين الثقافات كبيراً لدرجة التناقض. لكن الثقافة بتنوعها وثرائها بالإرث الإنساني لا يجب أن تعني بالضرورة التنافر والتناحر بين الأمم، بل يمكن أيضاً أن يكون هذا التنوع مصدراً للغنى المعرفي يثمر عن تواصل بين الأمم. وقد تكون أيضاً الثقافة مختلفة ومتنوعة داخل المجتمع الواحد.

8. **تجددها**: الثقافة الحية هي التي تستطيع من تجدد محتواها، من خلال تعاظم الوعي وانتشاره وعمقه، وكذلك إدراكه لإشكاليات الحاضر. حيث تتجدد الثقافة في مضمونها ومؤسساتها وأدواتها. فالثقافة في

عملية تحول متواصلة.

9. **واقعيتها**: إن الثقافة تعكس الإنتاج والنشاط الحقيقي الواقعي للأفراد والجماعات. ويمكن دراسة الظواهر الثقافية تماماً مثل دراسة الظواهر الاجتماعية.

10. **ترابطها:** الثقافة كونها فعلاً إنتاجياً مجتمعياً، فإنها ملك لجميع أفراد المجتمع، وهي تمتلك خاصية ترابطية توحيدية، إذ أنها تعمل على تآلف أفراد المجتمع فيما بينهم.

خامساً: وظيفة الثقافة Culture function

البشر هم من ينتجون الثقافة، سواء أفراداً كانوا أم جماعات، أم شعوباً، أم أمماً، وهم أيضاً من يتوارثونها ويورثوها. لذلك تتحول الثقافة إلى منظومة من القواعد والمفاهيم التي تحدد سلوكيات الناس ومعتقداتهم، وتفرض نوعاً من الضوابط الاجتماعية والأعراف على أفراد المجتمع لتنظيم الحياة داخله. لذلك نلاحظ في جميع المجتمعات بنقل وتوريث هذه الضوابط والعادات والقيم من جيل إلى جيل وتفسيرها.

وهذه العملية تسمى التربية، التي يكون دورها حفظ التراث الثقافي، وتجدد هذا التراث عبر مسايرة الثقافة للتطورات التي تحصل في المجتمع في القطاعات كافة، والتي تشكل امتحاناً حقيقياً لقدرة الثقافة الموروثة على مواجهة المتغيرات والتماهي معها، بحيث تضمن استمرارها وبقاءها.

تعتبر عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية "روث بندكت" Ruth Benedict أن الثقافة بإمكانها تزويدنا "بطرق لتفسير وفهم السلوك الإنساني، وأنساق المعتقد، والقيم والايديولوجيات، وببعض أنماط الشخصية المميزة لثقافات بعينها"[12]

الثقافة، بمدلولاتها الحسية والمعنوية، هي البنيان الرئيسي للمجتمعات البشرية، ووجدت حيث وجد الإنسان، فهي أساس وجود الأفراد والجماعات، وهي تحدد المنظومة التي تشكّل سلوكيات البشر وطريقة تفكيرهم ومشاعرهم، والإنسان يكتسب كل هذه السمات الثقافية منذ صغره من المجتمع الذي

---

[12] مارشال، جوردون، موسوعة علم الاجتماع، ترجمة أحمد زايد وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ط 2، المجلد 2، القاهرة 2007، ص 458.

ينتمي له. وكذلك فإن حالة وواقع المجتمع يتوقف على نوعية وماهية الثقافة السائدة فيه. هذا لأن الثقافة متصلة بتفاصيل الحياة اليومية للأفراد ونشاطهم وإنتاجهم، وهو ما يحدد إطار وضوابط وطبيعة علاقاتهم فيما بينهم، ونوعية القيم والأخلاق والسلوكيات التي وجب على الأفراد اتباعها. كما أن الثقافة تؤمّن للأفراد بعض الحاجيات التي يكتسبها الإنسان منذ صغره من خلال الأنماط السائدة وتفاعله معها، مثل الزي والمركز الاجتماعي وسواها.

بهذا المعنى فإن الإنسان يكبر وينشأ على منظومة عادات وقيم سوف يكون لها بالغ الأثر على حياته كلها لاحقاً. على سبيل المثال قد يولد الفرد ويعيش في مجتمع متشدد في بعض القضايا مثل الدين والجنس، أو قد ينشأ في مجتمع لا يعير هذه القضايا أية أهمية.

إن الثقافة ترعى وتحافظ على مكونات الهوية الجمعية، فهي الوعاء الذي ينهل منه الفرد ويكتسب طباعه وسلوكه. لذلك قد تكون الثقافة سبباً لتطور الفرد والمجتمع، وقد تكون عاملاً كابحاً للتطور والتقدم. وفي الحالتين يُظهر البشر اعتزازهم بصفة عامة بثقافتهم لأنها تمثل وتعكس هويتهم.

فإن كانت اللغة عاملاً محدداً لانتماء الأفراد والجماعات لثقافة ما، فإن علاقة الأفراد بلغتهم هي المدخل على امتلاط وفهم الثقافة، بمعنى أن عنصر اللغة لا بد من توفره كمدخل للتمكن الثقافي، فاللغة وأنماطها وصيغها تماماً كالثقافة ليست أشكالاً صماء، بل هي كيانات تفيض بأشكال الحياة.

من وظائف الثقافة أيضاً أنها تقدّم لأفراد المجتمع مساعدة بهدف إكسابهم معرفة بالطبيعة والكون واصل الحياة. قد يكون التفسير الذي تقدمه الثقافة للأفراد لاهوتياً أو علمياً. قد يتبنى الأفراد هذه الشروحات وتصبح جزء من طريقة تفكيرهم ونظرتهم للأمور. الثقافة تكسب الأفراد أيضاً معايير ومقاييس لمقاربة الأشياء وتمييزها بين الثنائيات، مثلاً أفعال جيدة أو قبيحة، تصرف طيب ومحمود أو كريه وخبيث، وهكذا. ثم تعمل الثقافة على أن ينمو ضمير الفرد من خلال تماهي الفرد ذاته مع قيم وأخلاق الجماعة.

من خلال الثقافة التي يكتسبها الأفراد يتمكنون من تشكيل أدوات يستطيعون بواسطتها التنبؤ بسلوك الأفراد الآخرين أو سلوك الجماعة التي ينتمي إليها في حالات ومواقف محددة. ذلك إن التعرف على النمط الثقافي السائد في مجتمع ما، يمكّن من تصوّر سلوكيات الأفراد والجماعات في مواقف ما.

ولمعرفة الكيفية التي تعمل بها نظم مجتمع ما، وكيف تبدل أنماط عملها، يعتبر مؤسس الأنثروبولوجية الاجتماعية المفكر الأمريكي من أصل بولوني "برونسيلاف مالينوفسكي" Bronisław

Malinowski أن التغير الثقافي يحصل في الأساس نتيجة الاحتكاك الخارجي، حيث يذكر "دنيس كوش" Denys Cuche أستاذ الاثنولوجيا في جامعة السوربون في كتاب "مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية "يقلل مالينوفسكي من شان التوجهات الداخلية إلى التغيير في كل ثقافة، إذ التغيير بالنسبة إليه يرد أساساً من الخارج عبر التماس الثقافي"[13]

القسم الثاني: المثاقفة

أولاً: نظرية المثاقفة Acculturation

المثاقفة هي عملية التفاعل والتأثر والتأثير التي تتم بين الثقافات والحضارات نتيجة الاتصال والتواصل والاحتكاك بينهما. يعرف القاموس الموسوعي المثاقفة وهي كما وردت في اللغتين الإنجليزية والفرنسية acculturation " ما تقتبسه ثقافة ما من غيرها من الثقافات وتعمل على استيعابه وتأصيله في كيانها حتى يغدو جزءا منه بعد أن كان طارئاً" [14]

والمثاقفة لا تعني فقط التأثر بثقافة ما والأخذ عنها، بل تعني كذلك التأثير في الثقافات الأخرى نتيجة الاحتاك والاختلاط، أو ربما بسبب الجوار، أو بحكم انتشار ثقافة ما لتميزها. إذ أن المثاقفة عملية تفاعلية مشتركة تحصل وفقاً لمبدأ التأثر والتأثير.

---

[13] كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت2007، ص59.

[14] Le Petit Larousse illustré – Dictionnaire encyclopédique – 1993 – P34

يعود تاريخ استخدام هذا المصطلح إلى نهاية القرن التاسع عشر، حيث كان العالم النفسي الأمريكي "جون ويسلي باول" John Wesley Powell حيث إنه "أول من صك هذا المصطلح، وعرفه بأنه يشير إلى التغيرات النفسية الناجمة عن المحاكاة عبر الثقافية" [15]. وكان عالم الأنثروبولوجيا حينها يصف التغير الذي يصيب أنماط حياة المهاجرين وافكارهم وثقافتهم خلال احتكاكهم مع المجتمع الأمريكي وثقافته وهو الذي ابتدع هذا المصطلح.

في عام 1936 أنشأ مجلس الولايات المتحدة الأمريكية للبحث في العلوم الاجتماعية لجنة لتنظيم البحث في قضية التثاقف، نتيجة غزارة ما تم كتابته عن الموضوع، فقامت اللجنة بتعريف التثاقف على أنه "مجموع الظواهر الناتجة من تماس موصول ومباشر بين مجموعات أفراد ذوي ثقافات مختلفة تؤدي إلى تغيرات في النماذج الثقافية الأولى بإحدى المجموعتين أو كليهما" [16]

ومنذ أن ظهر هذا المصطلح أثار ولا يزال نقاشاً في الشرق بين مختلف المفكرين والنقاد والباحثين، لأن عدداً منهم اعتبر أن المثاقفة ما هي إلا غزو ثقافي نشأ نتيجة التأثير الذي أحدثته ثقافة المستعمر القوية في ثقافة الشعوب التي تم استعمارها، فيما ينظر له البعض على أنه لقاح وتلاقح، وتأثير وتأثر. في الواقع الموضوعي إن الثقافة الأقوى تبسط سيادتها على الثقافة الأضعف. وفي الراهن إن الثقافة الغالية هي الثقافة الغربية التي رسمت هي نفسها صورة الآخر "العربي" وهي صورة الضعيف المثير للشفقة.

ولكن بصورة عامة بظني إن المثاقفة التي هي حوار وتواصل واحتكاك بين ثقافة الأمم والشعوب القومية والوطنية وبين أي ثقافة جديدة، فإنه يتم اكتسابها غالباً بصورة اختيارية، وهي تؤدي إلى اختلاط وامتزاج

---

[15] التلاوي، جمال نجيب، المثاقفة عبد الصبور وإليوت دراسة عبر حضارية، ترجمة ماهر مهدي، حنان الشريف، دار الهدى للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة2006، ص7.

[16] كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت2007، ص93.

ثقافتين أو أكثر، وليس بالضرورة أن تخضع أحداهما للأخرى، حيث المثاقفة الحقيقية هي ما ينتج عن صهر ودمج فكرين مختلفين وثقافتين مختلفتين، وليس إذعان فكر وثقافة لفكر وثقافة أخرى.

والتثاقف ليس هو التغير الثقافي الذي يمثل جزءًا من عملية التثاقف، كما يجب التمييز بين التثاقف والاستيعاب الذي يشكل المرحلة النهائية للتثاقف. وتخضع المثاقفة لتأثير عناصر متعددة منها عوامل موضوعية تفرضها المصلحة الجمعية وتطلعات الشعوب في علاقتها نحو النمو والازدهار. وهناك عوامل ذاتية تتحكم بها رغبة بعض الشعوب والأفراد إلى اقتباس ونقل بعض السمات من الثقافات الأخرى لحاجات محلية. ثم إن المثاقفة تحصل وتتفاعل في ميادين متعددة ومختلفة. فهي قد تحصل بين أمم وشعوب وكيانات منفصلة ومستقلة عن بعضها، وهي تحصل بين جماعات واقليات في كيان واحد. المثاقفة تحصل تدريجياً وعلى مراحل، ولكن هناك أيضاً تثاقف يحصل بين الجماعات بصورة مباشرة وبواسطة استخدام وسائل تكنولوجية حديثة.

إن المثاقفة فعل طبيعي بأشكاله المتعددة ومستوياته المتنوعة، وإن بدت ليست على سوية واحدة من الظهور والتمثل في العصور التاريخية، ومع ذلك فإن المثاقفة كانت حاضرة بدرجة أو أعلى في كافة المجتمعات والحضارات، لأنها فعل مرافق للوجود الإنساني، وأيضاً بحكم أن المجتمعات البشرية متعددة ومتنوعة اجتماعياً وثقافياً وسلوكياً عبر التاريخ، ولأن البشر تواقون إلى التواصل مع الآخر فطرياً. يتضح مما تم ذكره أن فعل المثاقفة لا يتحقق إلا بالتواصل الإنساني بين البشر.

لقد ابتكر الأمريكيون مصطلح "النزوع" Tendency حتى يُظهروا "أن التثاقف ليس اعتناقاً غير مشروط لثقافة أخرى. إن تحول الثقافة الأصلية يتم عبر انتقاء عناصر ثقافية مفارضة، ويتم هذا الانتقاء من تلقاء ذاته، وفق نزوع عميق في الثقافة الآخذة" [17]. فالتثاقف لا يفترض اختفاء ثقافة أمام ثقافة أخرى مهيمنة.

وفي أربعينيات القرن العشرين أطلق الأنثروبولوجي الأمريكي"ميلفيل جان هيرسكوفيتس" Melville Jean Herskovits مصطلح "إعادة التأويل" Reinterpretations بهدف إيجاد مفهوم جديد يلحظ الأسلوب والآلية التي تستخدمها كل مجموعة من الأفراد لإنتاج توليفات ثقافية جديدة خلال عملية

---

[17] كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، مصدر سابق، ص95.

الاختلاط والتواصل الثقافي، وقد عرف إعادة التأويل على أنها "الصيرورة التي تُسند بها دلالات قديمة إلى عناصر جديدة، أو التي تغير بها قيم جديدة الدلالة الثقافية التي طانت لأشكال قديمة" [18]

فالمثاقفة كفعل وتفاعل موضوعي أكثر ما يظهر ويتجلى في تنوع الأفكار وتعددها، واختلاف الثقافات والأديان والأعراق، فتمتزج الثقافات فيما بينها. فالمثاقفة بظني أنها تؤثر وتتأثر بكافة مستويات الواقع الاجتماعي والثقافي، ولا يمكننا الحديث عن تغير ثقافي افقي أو عامودي بصورة ميكانيكية، بل هي عملية معقدة ومتشابكة وتراكمية. السؤال الإشكالي في هذا السياق هو هل ينسجم التثاقف مع شعب آخر بما تكون عليه الذهنيات والثقافة القائمة أم يتعارض معها، وإلى أية درجة، وهل يكون للمثاقفة أثر إيجابي أم لا؟

إن الإنسان الكائن الاجتماعي التواصلي ومنذ وجوده أدرك بغريزته أهمية تواصله مع الآخرين لحمايته من المخاطر الطبيعية، فنشأت المجتمعات وتنوعت، لكنها بقيت في حاجة إلى الاتصال فيما بينها للمساعدة في درأ ما يهدد الوجود البشري. تطورت طرق الاتصال والتواصل بين البشر على مر العصور، واجتهدت الجماعات في ابتكار وسائل جديدة للتواصل والعمل على تحسينها وتطويرها، ونتيجة لذلك ظهر التثاقف والمثاقفة بين الأفراد والكيانات البشرية.

وبالتالي فإن هذه الظاهرة عرفتها كافة المجتمعات الإنسانية والحضارات البشرية التي أثرت ببعضها واستفادت قليلاً أو كثيراً من بعضها في مرحلة أو أخرى من تاريخها. فالتفاعل الثقافي كان دوماً عاملاً رئيسياً في مسيرة النمو والتطور الثقافي، بحكم ما يحدثه من غنى وتنوع يثري الثقافة البشرية، ويوفر لها التربة الصالحة والمناخ المناسب لدفعها للابتكار من أجل البشرية ولمصلحة تطورها وتقدمها. كما ذكر الفيلسوف والمؤرخ الأمريكي "ول ديورانت" Will Durant في موسوعته قصة الحضارة " أن الجنس البشري كله لم يحتفظ في تراثه إلا بأنصع واقوى ما مر به من تجارب ثقافية" [19]

المثاقفة استوعبت قطاعات متعددة في نشاط مختلف الأمم والشعوب والحضارات، ويمكن تحديد الميادين التي أثرت فيها المثاقفة بأربعة سياقات. أولها قطاع الأفكار والرؤى والتصورات والمخيال، وما يتم

---

[18] المصدر نفسه، ص96.

[19] ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة نشأة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دال الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد الأول، ط1، ص186.

عبرهم من التواصل العلمي والمعرفي والثقافي. وهنا كان للمثاقفة دوراً هاماً في تبادل المعرفة بين الأمم والشعوب للاستفادة مما هو جديد في الإنتاج الإبداعي على كافة الأصعدة. ولولا هذه المثاقفة لظلت العلوم والمعارف حبيسة في مكانها واستأثرت بها جماعة دون أخرى. يذكر مؤرخ العلوم الأمريكي "جورج سارتون" George Sarton في كتاب "تاريخ العلم" أهمية التواصل والتثاقف بين الشعوب ودوره في تبادل المعرفة والحض على الاكتشافات العلمية، وكذلك إلهام الشعوب الأخرى على الابتكار. يقول سارتون أنه "في الرياضيات وغيرها من العلوم المجردة، تنشأ الأفكار ببعضها من بعض" [20]

وقد ألهمت الثورة العلمية التي قامت في إنجلترا خلال القرن السابع عشر الفرنسيين على الاهتمام بالعلوم الاجتماعية والفلسفية، حيث ذكر "الثورة العلمية التي قامت في إنجلترا في خلال القرن السابع عشر، كانت حافزاً حفز الفرنسيين إلى الاتجاه نحو البحث في العلم السياسي" [21]

يبرز التواصل اللغوي أيضاً كمجال تأثر كثيراً بالمثاقفة التي كانت سبباً في نمو وتطور اللغات والألسن، ورفدها بمفاهيم ومعان ومصطلحات وإثراءها بالدلالات، أكانت العملية تتم بطريقة مباشرة من خلال الاختلاط والاحتكاك مع اقوام أخرى، أو كان بصورة غير مباشرة من خلال الترجمات التي تمت لأمهات الكتب في مختلف العلوم ومن جميع اللغات، وبهذا استفادت اللغات من الرصيد الذي تشكل عند بعضها البعض من تعابير ومفردات وخصائص، فأصبحت قادرة على الاستمرار ومواكبة التطور الحضاري. يعتبر عالم الإنسانيات المعاصر الفرنسي "بول ريكور" Paul Ricœur أن الكلام الذي هو رسالة وخطاب ليس فعلاً ينتهي بلحظته، بل هو قابل لإعادة الصياغة من جديد بنفس اللغة أو في لغات أخرى عبر الترجمة، وتظل العبارة تحافظ على هويتها الدلالية. ويعتبر ريكور أن "الاتصال، سواء أكان بالكلام أم بالكتابة، مشروع لانفتاح الذات على العالم الخارجي". [22]

---

[20] سارتون، جورج، تاريخ العلم والإنسية الجديدة، ترجمة إسماعيل مظهر، دار النهضة العربية، ط1، القاهرة1961، ص19.

[21] المصدر نفسه، ص25.

[22] ريكور، بول، نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء2006، ص15.

أيضاً أثرت المثاقفة على قطاع الفنون والخبرات التي تُكتنز والمهارات والأحكام، وكل ما يتعلق بالإبداع، فلا شك أن لكل شعب خبرته الخاصة وتجاربه في فروع الحياة. فمن خلال عملية المثاقفة تم انتقال بعض هذه الخبرات من شعب إلى أخر بطرق مختلفة، مما مكن الشعوب والجماعات من الاستفادة من خبرات بعضها البعض، ومن جهة أخرى لعب التثاقف دوراً في عملية إظهار الإنتاج الأرقى والأفضل والأكثر تميزاً، وهذا كان له الفضل في تنافس المجتمعات البشرية فيما بينها لتحسين وتطوير ظروف حياة البشر، وكل ما يحقق لهم الرفاهية.

ثم لا يمكن نكران الأثر الذي تركته المثاقفة في مجموعة العادات والتقاليد والسلوكيات والقيم والمنظومة الأخلاقية للشعوب والجماعات، ويبدو هذا جلياً في انتقال الطعام والثياب والأزياء وبعض السلوكيات وأنماط الحياة، من مكان إلى آخر بواسطة المثاقفة

يتضح مما سبق دور المثاقفة الهام تاريخياً في تطور الحضارات، حيث نهلت كلاً من الحضارة اليونانية والفارسية والرومانية من علوم ومعارف الشرق القديم. حيث تم الاستفادة من أهم الاستخلاصات الحضارية وتمازجها وتفاعلها مع عبر المثاقفة، ث استفادت الحضارة الإسلامية من الإرث الإنساني العالمي في تطورها وازدهارها، وفيما بعد تمكنت الحضارة الغربية من الأخذ والاقتباس عن الحضارة العربية لتقيم نهضتها. وهذا يمكن الحديث اليوم عن حضارة عالمية بمحتوى إنساني ساهمت في تقدمها البشرية جمعاء.

يذكر الفيلسوف والمؤرخ الإنجليزي "جورج سارتون" George Sarton في رسالة الدكتوراه التي ناقشها في جامعة بروكسل العام 1911 في تتبع الحضارات "هناك حضارة هندية صينية، وأخرى آشورية بابلية، وثالثة مصرية، وقد تأثر بعضها ببعض، وأثرت بدورها بالحضارة اليونانية" [23]

وجاء في موقع آخر من كتاباته أن "المسلمون عباقرة الشرق في القرون الوسطى، لهم مأثرة عظيمة على الإنسانية. وكانت اللغة العربية بلا مراء لغة العلم للجنس البشري وفي الفترة الواقعة بين منتصف القرن الثامن

---

[23] الملا، أحمد علي، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، دمشق1981، ص109.

عشر ميلادي حتى نهاية القرن الحادي عشر، لدرجة أنه كان يتحتم على الشخص الذي يريد الإلمام بثقافة عصره، وبأحدث ما يجري من علوم، أن يتعلم اللغة العربية" [24]

هذا الرأي يدلل على عظمة وفضل المؤلفات والعلوم والإرث المعرفي للحضارة العربية التي كانت منارة للعلم والفكر الإنساني في ذلك الحين. في عصر كانت فيه أوروبا غارقة في مشاكلها. وكان من الصعوبة تصور كيف يمكن أن تؤول الأمور، وكيف سيكون حال البشرية "لو لم يقم العرب والمسلمون، من خلال هذه الفترة، بحمل رسالة العالم والثقافة، وتطوير المعرفة، وحفظ التراث الإنساني، وحمله إلى الأجيال التالية" [25]

إذن الشعوب والأمم والحضارات تزدهر وتتطور فيها المعرفة والعلوم، كلما تعرضت للمثاقفة أكثر. رغم أن أثر المثاقفة كان محدوداً قياساً بعصرنا الحالي، حيث اتصفت المثاقفة أنها كانت ظرفية وذات تفاعل بطيء، بسبب عوامل منها التباعد الذي كان قائماً بين الأديان والعقائد، وبسبب التباعد الجغرافي بين الكيانات التي كانت متناثرة جغرافياً. لكن في العصر الحديث تعمق أثر المثاقفة واتسع، بل أصبحت حالة قائمة تتواجد على مدار الساعة، وذلك تحقق بفعل التطور الكبير في تكنولوجيا وسائل الاتصال والتواصل، وبفضل الثورة الرقمية التي أزالت الحدود السياسية بين الدول، وباتت المجتمعات مفتوحة على بعضها البعض.

هذا التطور الهائل في التقنيات أنتج مجتمعات المعلومات أو مجتمعات والمعرفة أو المجتمعات الذكية، ثم نشأ بفضل ذلك تيار العولمة. إن الأبواب الواسعة التي فتحتها العولمة أمام تواصل الشعوب وتلاقح الثقافات، ترافقت مع ظهور أخطار تهدد المثاقفة ذاتها عبر ما تشكله هذه الأخطار من قيود وعراقيل وصعوبات، قد تحول دون تحقق المهمة الأساسية للمثاقفة، أو قد تؤدي إلى تبديل مسارها، أو تزييف دورها، أو السعي نحو تقويض دورها. هذه المخاطر نجمت عن اختلاف وتعدد مواقف المفكرين والباحثين والمهتمين من قضية العولمة، وهي مواقف بمعظمها يتم اتخاذها بخلفية أيديولوجية، بين مؤيد ومناصر، رافض للعولمة بالمطلق مثل المفكر المغربي "محمد عابد الجابري" الذي هاجم العولمة واعتبرها استيلاء على الدولة والوطن والأمة، وحذر من الأممية في عصر العولمة، وتعامل الجابري مع العولمة على أنها غزو استعماري بأدوات حديثة، وقال "طيف يمكن تحقيق نهضة أو تنمية إذا ما أصبحت الدولة مجرد دركي

[24] المصدر نفسه، ص110.
[25] المصدر نفسه، ص111.

يحافظ على الأمن لفائدة الفاتحين الجدد، الشركات والمؤسسات المتعددة الجنسية، التي شعارها أكثر ما يمكن من الربح بأقل عدد من المأجورين" [26]

بظني أن اتخاذ مواقف رافض قطعي من العولمة واعتبارها شراً كتلة واحدة يؤثر على التواصل ويحد من عملية المثاقفة بين الشعوب والأمم. فالتفاعل الثقافي والإنساني هو الذي يوفر الدعائم التي تضمن تعايش الثقافات والشعوب، بما يحقق التقدم البشري. فيما يبدو أن رفض الآخر أو الابتعاد عنه يعني الانزواء والعزلة والانغلاق الذي يتبعه جمود الأفكار وتكلس الحياة. أما محاولة فرض الهيمنة على الآخر وثقافته كما يحاول الغرب أن يفعل، بهدف تطويع وإخضاع الثقافات الأخرى، فنتها أيضاً تضر بالمثاقفة وتحدث إرباكاً في السيرورة التاريخية، ذلك لأنها تقصي أحد أطراق التثاقف، ويشرع الأبواب أمام الاختراق والغزو الثقافي، الذي يقضي على الهوية الثقافية للأمم والشعوب. هذا الأمر يتعارض مع مبدأ الحياة ذاتها التي تعبق بالتنوع الثقافي.

إن الغزو الثقافي والمثاقفة أمران مختلفان تماماً. فالمثاقفة عملية طوعية إيجابية تقوم وفقاً للتشارك، وتعتبر الاختلاف هو مصدر للتنوع الذي يثري البشرية، بينما الغزو الثقافي عملية جبرية سيئة ترمي إلى تهميش الآخر ثقافيا ومعرفياً ثم تطويعه وإخضاعه بهدف استغلاله. بعض المفكرين يميز بين مفهوم الغزو الثقافي والاحتكاك المطلوب بين الحضارات. نجدهم يفرقون بين "جانب الثقافة الإنسانية الرفيعة التي تحمل بطبيعتها قيماً إيجابية، وبين جانب آخر ينذر بالخطر، وهو البضاعة الرديئة التي تتزين بزي ثقافي وهي من الثقافة الحقيقية براء" [27]

"في ميادين الأدب والفن والفكر لا يصح أن تثار فكرة مثل الغزو الثقافي، لأن الأمر هنا هو تبادل خلاق، ولا يتصور قيام ثقافة بانغلاقها على ذاتها، وطردها لعوامل التأثير" [28]

---

[26] الجابري، محمد عابد، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت1997، ص149.

[27] محمد، سيد محمد، الغزو الثقافي والمجتمع العربي المعاصر، دار الفكر العربي للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة1994، ص18.

[28]ا لمصدر نفسه، ص18.

بعض المفكرين العرب استخدم تعبير "الإحلال الثقافي" بدلاً من مصطلح الغزو الثقافي، مثل "أحمد عبد الرحمن إبراهيم" الذي ذكر أن الغزو الثقافي "شبح لا وجود له" [29]

واعتبر أن الإحلال الثقافي هو جميع المحاولات التي يسعى من خلالها الغرب إلى إحلال ثقافته مكان الثقافات المحلية الأصلية. وسواء كان غزواً أو إحلالاً فإنه سوف يؤدي بظني إما إلى الصدام الثقافي، وبالتالي تنعدم معه عملية المثاقفة، أو يؤدي إلى الانصهار والذوبان الثقافي، أي أن تقوم الثقافة الغازية بابتلاع الثقافة الوطنية، وبالطبع هذا ينتج عنه فقدان الهوية الثقافية. وهذا أيضاً لا علاقة له بالمثاقفة.

أيضاً يظهر التقليد على أنه نقل واستنساخ غير إيجابي من ثقافة الآخر. والتقليد ظاهرة غير المثاقفة، لأنه يعتمد على أجذ بعض المظاهر والسلوكيات من طرف واحد عادة يكون هو الطرف الأضعف. بينما المثاقفة تفاعل طرفين. التقليد فعل يشير إلى نوع من الانسلاخ الثقافي في مجتمع ما، فهو يكون مؤشراً لبداية انحلال الهوية والشخصية الاعتبارية والثقافة الوطنية.

من أبرز شروط المثاقفة هو التسليم بالتنوع الثقافي والتعدد الحضاري واختلاف التجارب البشرية للأمم والشعوب، وإدراك الخصوصيات الثقافية لكل كيان، وارتباطها وعلاقتها بالمجتمع وعناصره المتداخلة. هذا يعني أن المجتمعات التي تلتصق بثقافتها الوطنية يصعب اختراقها وإخضاعها الكامل. ثم إن المثاقفة تتطلب مشارة وتفاعلاً طوعياً بصورة إيجابية من طرفين لديهم ثقافتين مختلفتين، فالمثاقفة اختيار وفعل يتم بصورة سلسة بعيداً عن إصدار قرارات، أو الأخذ السلبي، وتتم المثاقفة في ظروف مريحة لا تعاني من التوتر والضغوط التي تنتجها الهيمنة والاختراق. وبظني من المهم توفر نوعاً من التكافؤ في طرق وأدوات وأشكال المثاقفة لتحقيق قدراً من التوازن بين الطرفين، لأن تفعيل آليات طرف دون الآخر من شأنه الإخلال في التوازن الذي تتطلبه المثاقفة، وقد ينتج عنه نوعاً من التسلط. كذلك تتطلب المثاقفة الوعي والتفكير العقلي اللذان يمكنان من اختيار الأفضل والأكثر فائدة والاصلح لفائدة المجتمع وتطوره، ويقيان من الوقوع في الانبهار المزيف. دون الوعي الحقيقي المتسلح بمعايير الحرية والعدالة والحق والشعور العالي بالمسؤولية المجتمعية لا يمكن أن تتحقق المثاقفة الحقيقية.

---

[29] المصدر نفسه، ص19.

ثانياً: استراتيجيات المثاقفة والهوية Acculturation and identity strategies

بالرغم من أن علاقة الثقافة بعلم النفس علاقة وثيقة وقديمة، إلا أن الأبحاث التي اهتمت بدراسة بالأثر الذي تحدثه الثقافة في السلوكيات البشرية لم تبدأ إلا في القرن التاسع عشر، واتسع الاهتمام بها خلال القرن العشرين فيما عرف "علم النفس عبر الثقافي" Cross cultural psychology. فالمصطلح يشير إلى العلاقة والاتصال بين الثقافات، وهي علاقة شهدت منذ القدم مراحل مختلفة، بدءًا من الانكفاء والتقوقع، إلى اللامبالاة والتهميش، إلى التشارك والتفاهم حيناً، والتنافس والصراع أحياناً أخرى، بل خبرت العلاقة بين الثقافات مراحل زهرت فيها الحروب والصراعات الدموية والقتل المتبادل.

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين انصب عمل الباحثين في مجال عبر الثقافي على الجانب العرقي، الذي يتلخص بتفوق العرق الأبيض عقلياً وحضارياً على بقية الأجناس الملونة Superiority ethnic. فقد أجرى الباحث الأمريكي "فرانس بواس" Franz Boas دراسات على الهنود الأمريكيين أو السكان الأصليين لأمريكا. وكذلك اشتغل "جوردون ألبورت" Gordon Allport وغيره من الباحثين على قياس حجم ووزن جمجمة الإنسان الأفريقي، ومقاربتها بجمجمة الرجل الأبيض، وكشفت أبحاثهم "أن دماغ الأفارقة يساوي في المتوسط ما بين 88,9 و89,4 من دماغ الأوروبيين" [30]

ومنذ أربعينيات القرن العشرين تم إسقاط نظرية التفوق العرقي والعقلي للأبيض، لكن ظل في عمل الباحثين متفوقاً ثقافياً وحضارياً، واتجه العمل البحثي نحو "الطابع القومي" National character. حتى ستينيات القرن الماضي كان البحث العلمي عبر الثقافي داخل الدول الأوروبية نفسها، التي اختبرت الحرب العالمية الثانية، لذلك برزت ضرورة البحث في السياق القومي للشعوب، لإعادة تموضعها وصياغة علاقاتها في ضوء النتائج التي تمخضت عنها الحرب. إن الدراسات عبر القومية التي تم إنجازها في تلك الفترة، اعتبرها

---

(30) السباعي، عبد الناصر، علم النفس عبر الثقافي، إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية، سلسلة الكتاب الالكتروني، العدد27، 2013APN e, Book.، ص18،

الباحث الأسترالي "بيتر سنجر" Peter Singer أنها ذات قيمة مهمة بالنسبة للأبحاث غبر الثقافية، كما أنها غيرت مجرى الأبحاث حيث "حولت الاهتمام من المتغيرات العرقية إلى المتغيرات الثقافية" [31]

مع الانفراجات التي تحققت على الصعيد الدولي، توسعت دائرة اهتمام الباحثين خارج القارة الأوروبية، التي كانت تتمركز حولها الدراسات القومية في تلك الفترة، وبدأت دراسات وأبحاث عبر ثقافية قام بها الغربيين لإضفاء نوع من المصداقية العلمية على أبحاثهم التي كانت حصراً في أوروبا. ثم نشأت ظاهرة الامبريالية الثقافية في فترة ستينيات القرن العشرين، ومعها بدأ الحديث عن الاعتراف بحق الشعوب في المحافظة على ثقافتها، خلال مرحلة شهدت استقلال العديد من الدول في القارتين الآسيوية والأفريقية. مما دفع الأمم المتحدة إلى التصويت على "إعلان مبادئ التعاون الثقافي الدولي" عام 1966. في نهاية عام 1979 صدر أول كتاب مرجعي في علم النفس عبر الثقافي بعنوان "دليل علم النفس بين الثقافات" Handbook of Cross-Cultural Psychology في ست مجلدات لمؤلفه عالم النفس الأمريكي "هاري ترياندیس"Harry Charalambos Triandi. وقد تم تقسيم الدراسات عبر الثقافية في الكتاب إلى ثلاثة أقسام:

الأول: علم النفس الثقافي Psychology cultural ويدرس العلاقة بين سلوك الفرد وثقافته.

الثاني: علم النفس الثقافي المقارن Comparative cultural psychology يختص بالمقارنات بين الثقافات التابعة لمجتمعات مختلفة.

الثالث: علم النفس التثاقفي: Acculturation psychology يهتم بدراسة التأثير الذي يحدثه الاتصال والتبادل الثقافي على سلوكيات ومفاهيم الأفراد في مجتمع واحد.

إن المجتمعات الحديثة هي مجتمعات متنوعة ومتعددة ثقافياً وعرقياً ولغوياً، فلم تعد هذه المجتمعات كالسابق ذات غالبية ثقافية وعرقية ودينية ولغوية واحدة. هذا التنوع تعاملت معه بعض المجتمعات على أنه مصدراً للإثراء يستفيد منه أفراد المجتمع في التعلم من تعدد المهارات وأنماط السلوك والمعيشة،

---

[31] المصدر نفسه، ص21.

واكتساب خبرات حياتية جديدة، وفي مجتمعات أخرى أصبح هذا التنوع سبباً للتنافس والصراع وبروز تيارات فكرية متشددة.

إن التعددية الثقافية Multiculturalism أصبحت أبرز سمة للمجتمعات الحالية، لذلك لا بد من إدارة هذه التعددية على المستويين الفردي والجمعي، حتى لا تحدث صداماً. في هذا السياق فإن نظرية "استراتيجيات المثاقفة"acculturation strategies [32] لعالم النفس الكندي "جون بيري" John Widdup Berry الذي اشتهر من خلال عمله في الأبحاث المتعلقة بالسلوك والتكيف بين المهاجرين والشعوب الأصيلة بعد الاتصال بين الثقافات، أو ما يعرف بأنه "علم النفس بين الثقافات" Cross-cultural psychology. وهو علم يدرس كيف يتكيف أفراد المجموعات الثقافية مع عاداتهم وسلوكياتهم في مختلف السياقات البيئية والثقافية الإيكولوجية، ومعرفة ما هو أصيل وما هو مشتق في السلوكيات عند إجراء مقارنات بين الثقافات. واهتم بيري بدراسة سيكولوجية التثاقف والعلاقة بين الثقافات، وكذلك طور مفهوم التوتر أو الإجهاد الثقافي acculturative stress [33] إضافة إلى مفاهيم استراتيجيات التثاقف.

يسير مفهوم استراتيجيات التثاقف إلى بعض الطرق المختلفة لكيفية سعي الجماعات والأفراد للعيس سوياً في مجتمع واحد، عبر استخدام مفاهيم التكامل الأربعة كما يراها بيري، من خلال إشتراك كلا الثقافتين، الاستيعاب أو الانفصال، إشراك ثقافة واحدة فقط أو الثقافة الأخرى أيضاً، التهميش وهو عدم إشراك الثقافة أصلاً. ويصف ثلاث اشكال من التكيف، هي الصحة النفسية، والكفاءة الاجتماعية والثقافية، والعلاقات بين الثقافات. ثم طور مفهوم التوتر الثقافي كبديل عن مصطلح الصدمة الثقافية. ويستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى مقدار الضغوط التي يتعرض لها الأفراد والجماعات في سياق التكيف الاجتماعي وخلال عملية التثاقف.

أي أن المهاجرين وأولادهم يلجأون إلى خطوات تثاقفية متنوعة بهدف الوصول إلى مرحلة التكيف النفسي والاجتماعي والثقافي في مجتمعاتهم الجديدة عبر ثلاثة سياقات، الأول سلوكي يتعلق بطبيعة وكيفية

---

(32) Berry.J. W, D. Sam, Acculturation and adaptation. Dans J. W. Berry, M. H. Segall et Ç. Kagitçibasi (dir.), Handbook of cross-cultural psychology, Vol. 3, (Boston: Allyn & Bacon,1997), p. 291-326.

(33) Berry.J. W, D. Sam, Acculturation and adaptation. P. 285.

السلوكيات والعادات والمفاهيم وما يطرأ عليها بالنسبة للمهاجرين أفراداً وجماعات في مجتمعاتهم غير الأم وهو ما نسميه المثاقفة. والثاني يرتبط بالجانب النفسي، وله علاقة بالاضطرابات النفسية التي يعاني منها المهاجرين الوافدين وأولادهم، نتيجة الضغوطات النفسية التي يتعرضون لها في البيئة الجديدة المختلفة كلياً عن البيئة التي اعتادوا المعيشة فيها، ويطلق بيري على هذا الوضع القلق أو التوتر والإجهاد الثقافي، كبديل عن مصطلح الصدمة الثقافية. والثالث وهو المستوى الأهم بتقديري يرتبط بالتحولات في المواقف attitudinal shift، أو بصورة أوضح بموقف الفرد ذاته من التثاقف، وهو الأمر الذي يحدد في النهاية اتجاهات التثاقف، لأن "اختيار الفرد لإحدى استراتيجيات التثاقف يعتمد على موقفه من ثقافته الأم، وموقفه من ثقافة المجتمع المضيف" (34)

أولاً: استراتيجيات التثاقف: Acculturation strategies

مفهوم المثاقفة من المفاهيم التي تحتوي على معان متعددة، فهو مصطلح إشكالي يقوم على أساس التأثير الثقافي المتبادل بين الأفراد والجماعات بصورة متكافئة، فهي عملية تواصل وتفاعل ثقافية، تكون في الأصل بين مجموعتين متساويتين، لكن في الغالب عادة تكون المثاقفة بين ثقافة مسيطرة غالبة ومهيمنة، تقوم بتصدير ثقافتها ومفاهيمها إلى ثقافة أخرى مستلبة أضعف، وهي في الواقع من تقوم بتنفيذ نظرية معظم عناصر نظرية التثاقف، وهم هنا المهاجرين واللاجئين وأولادهم، وهم الذين يتعرضون للتغيرات الثقافية والاجتماعية والسلوكية والمفاهيمية الناتجة عن عملية التثاقف.

(34) C.Sabatier, J. W. Berry, Immigration et acculturation. In R. Y. Bourhis & J. Ph. Leyens (Eds.), Stéréotypes, discrimination et relation intergroupes (pp. 261-291). (Belgique: Mardaga, 1994), P 288.

ويرى جون بيري أن السمات الشخصية للأفراد والحالة النفسية والتباينات الفردية، مثل العمر ومستوى التعليم والنضوج العقلي، تلعب دوراً مهماً في عملية التثاقف "فدرجة تقبل الاختلاف الثقافي واستيعابه، وقبول الغير، تختلف من شخص إلى آخر" (35)

إن المهاجر أو اللاجئ يعتمد عدة هويات خلال تعرضه لعملية التثاقف. وهذه الاستراتيجيات تحددها موقف المهاجر الفرد من ثقافته الأم ومن مفاهيمه وعاداته التي اكتسبها في بيئته الأصلية، وبين ثقافة المجتمع الجديد وأفكاره وأنماط المعيشة فيه. يتعرض الأفراد المهاجرون هنا إلى صراع يرتبط بالهوية، حيث تتملكهم الرغبة الكبيرة في الحفاظ على ثقافتهم الاصلية، وكذلك الرغبة في الاحتكاك والاختلاق بثقافة المجتمع المضيف، ومحاولة التعرف على قيمه وعاداته والاجتهاد في تبنيها. فكل فرد مهاجر يقف أمام نفسه في وقت ما ويتساءل هل يريد المحافظة على ثقافته وهويته ومفاهيمه الأصلية، أم إنه يريد الاختلاط مع أفراد المجتمع الذي انتقل للمعيشة فيه، وأن يشاركهم العادات والمفاهيم ونمط الحياة. وهما سؤالين حددهما جون بيري في نظريته. (36)

فإن اختار المهاجر المحافظة على سمات وخصائص ثقافته الأم، والتمسك بدينه ولغته وعاداته، لكنه يرغب أيضاً بالاختلاط بثقافة البلد الجديد والتواصل مع أفراده، يكون المهاجر قد اختار "الاندماج" Integration والتكامل. وهو أمر إيجابي لأنه يولد شعوراً بالانتماء إلى المجتمع الجديد، الالتقاء والاتصال والتبادل مع أفراده، ومن ثم التكيف مع الواقع الجديد. وإن اختار المهاجر أو اللاجئ عدم التمسك بثقافته وعاداته الأصلية، لكنه يرغب في التواصل مع مجتمعه المضيف يطلق على هذه الحالة "التماهي" Assimilation أو ما يمكن تسميته الاستيعاب. وفي هذا الوضع ينفصل المهاجر عن ثقافته الأم تماماً وعن كل ما يرتبط بعاداته ومفاهيمه السابقة، ويتبنى ثقافة ومفاهيم وقيم وسلوكيات المجتمع الآخر. وهذا يحدث تغييراً واضحاً على شخصية وثقافة المهاجر وسلوكياته.

(35) John W. Berry, «Acculturation: Living Successfully in Two Cultures,» International Journal of Intercultural Relations, vol. 29, no. 6 (2005)، pp. 701.

(36) John W. Berry & David Sam, «Acculturation and Adaptation,» in: John W. Berry, Marshall H. Segall & Cigdem Kagitçibasi (dir.)، Handbook of Cross–Cultural Psychology, vol. 3 (Boston: Allyn & Bacon, 1997), p. 296.

وفي حال اختار المهاجر أن يتمسك بثقافته الأم والحفاظ على لغته ودينه وعاداته ونمط حياته الأصلي، وفي ذات الوقت لا يرغب في الاختلاط مع المجتمع الجديد، فيكون قد اختار التقوقع الثقافي Cultural reticence بحيث لا يقدم المهاجر على صياغة أية علاقة مع المجتمع المضيف. في هذه الحالة يتشكل موقف وسلوك لا تثاقفي، يعتمد على الانكفاء والانعزال عن مكونات المجتمع ما أمكنه ذلك.

هناك حالة أخرى قد يتعرض لها المهاجر أو اللاجئ في المجتمع الجديد، تتجلى هذه الحالة بفقدان الهوية الأصلية والتفريط بسمات الثقافة الأم، وفي ذات الوقت لا يُقدم على اختيار الاختلاط مع أفراد المجتمع الجديد، ولا يستطيع تبني ثقافته ويجد نفسه عاجز عن الاندماج. هنا يعاني المهاجر مما نسميه "التهميش" Marginalisation. هذه الفئة من المهاجرين تعاني عادة من اضطرابات نفسية وضياع وتشتت يضاعف الشعور بالغربة، ثم بالاغتراب والقطيعة مع المجتمع الجديد، تزداد حين يواجه المهاجر العنصرية والاستعلاء من قبل أفراد المجتمع الجديد.

ثانياً: استراتيجيات الهوية الاجتماعية: Social identity strategies

إن الهوية الاجتماعية للفرد تنبثق من شعوره بالتفرد والتشارك مع قيم المجموعة. لقد عرف عالم النفس البريطاني "جون تيرنر" John Turner الهوية الاجتماعية بأنها "جزء من مفهوم الفرد الذاتي المستمد من عضويته في مجموعة اجتماعية ذات صلة" [(37)]. وقام كل من تيرنر وعالم النفس البولندي الأصل البريطاني الجنسية "هنري تاجفيل" Henri Tajfel بصياغة نظرية "الهوية الاجتماعية" Social identity theory عام 1970. وهي نظرية توصف بأنها تتنبأ بسلوكيات محددة بين المجموعات البشرية على أساس الاختلافات، والقدرة على انتقال الأفراد من مجموعة إلى أخرى. وتشرح النظرية العمليات المعرفية المرتبطة بالهويات الاجتماعية للمجموعات، وكيفية تأثيرها على سلوكيات الأفراد. وتقوم النظرية على ثلاثة ركائز هي التصنيف الاجتماعي، والتحديد الاجتماعي، والمقارنة الاجتماعية.

(37) Turner, John; Oakes, Penny (1986). "The significance of the social identity concept for social psychology with reference to individualism, interactionism and social influence". British Journal of Social Psychology. 25 (3): 237–252.

فالهوية الاجتماعية هي بمثابة صورتنا عن ذاتنا ومن نكون، وعن الآخرين من يكونون، أيضاً صورة الآخرين عن أنفسهم وبالتالي عن غيرهم. والهوية الاجتماعية قضية إشكالية قابلة للحوار، أذ أنها تتشكل بعد جملة من عمليات التفاعل الثقافي والاجتماعي الإنساني. وهي أمر يتطلب إجراء مقارنات بين الأفراد والمجموعات البشرية، بهدف الكشف عن أوجه التشابه والاختلاف بينهم. حيث إن الأفراد الذين يؤمنون بوجود تشابه بينهم وبين الآخرين، يشتركون معهم في هوية واحدة، تختلف عن هوية الأفراد الذين يؤمنون بأنهم مختلفون وبالتالي لا يشتركون بذات الهوية.

بصورة عامة إن مفهوم الهوية معقد ومتشابك مثل مفهوم الثقافة، وهو ميدان للدراسة والأبحاث في مختلف العلوم. وقد اجتهد كثير من العلماء في تعريف الهوية في مجال علم النفس الاجتماعي، إلا أن أبرز تعريف يدلل على إشكالية التعريف، هو ما قدمه الفيلسوف وعام المنطق الألماني " غوتلوب فريج" Gottlob Frege الذي قال "إن مفهوم الهوية غير قابل للتعريف لأن كل تعريف هو بحد ذاته هوية، ولذلك لا يمكن تعريف الهوية" [38]

يمكن القول إن الهوية الاجتماعية للفرد عند عالم النفس الفرنسي" كارميل كاميلري" Carmel Camilleri

بمثابة منظومة كاملة متحدة من العناصر الاجتماعية والثقافية والنفسية، تمكن الفرد من الشعور بذاته وارتباطه بجماعة. ويحدد كاميلري للهوية ثلاث اتجاهات تقوم بوظائف محددة ومختلفة. [39] الاتجاه المعنوي، لأن الهوية تلعب دوراً بالغاً في عملية تبلور الذات الفردية والانتماء للجماعة. والاتجاه القيمي بحكم حاجة الأفراد للشعور بتقدير الذات، وأن له وللجماعة التي ينتمي إليها قيمة إيجابية. واتجاه براغماتي دوره المساعدة على الأفراد على الاندماج، ذلك أن البيئة التي يعيش فيها الأفراد تكون متناقضة ومتنوعة

---

[38] وطفة، اسعد علي، الهويات الأصولية في زمن التصادم، مجلة المعرفة، وزارة الثقافة السورية، العدد557، فبراير/شباط، دمشق2010، ص45.

[39] C. Camilleri, Identité et gestion de la disparité culturelle: Essai d’une typologie. Dans C. Camilleri, J.

Kastersztein, E. M. Lipianski, H. Malewska-Peyre, I. Taboada-Léonetti et A. Vasquez (dir.), Stratégies

identitaires, (Paris : 1990), p. 85

ولا تنسجم دوماً مع ميولهم. هذه الاتجاهات الثلاثة هي ما يكون الهوية الاجتماعية للفرد وتجعله يتساءل: من أنا، كيف يجب أن أكون، كيف يراني الآخرون؟

فالهوية الاجتماعية عند "كيلي هانوم" Kelly M Hannum تشير إلى "طريقتنا في التفكير في أنفسنا وفي الآخرين بالاعتماد على المجموعة الاجتماعية التي ننتمي إليها" [40]. وتعتبر هانوم أن هوية الأفراد الشخصية تتكون من ثلاث مكونات هي الهوية المعطاة التي ليس للأفراد فيها اختيار مثل الاسم والعمر والجنس والدين والصفات الخلقية التي يولد بها الإنسان. والهوية المختارة، أي تلك التي يختارها الأفراد طواعية، مثل المهنة والدراسة ومكان السكن والأفكار. ثم الهوية المحورية، وهي تلك السمات التي تجعل من كل فرد شخصاً متميزاً ومتفرداً عن الآخرين، مثل سمات شخصيتك الذاتية والسلوك والمهارات والقيم. وقد يتغير جزء من هذه المكونات مع الوقت ويكون بعضها ثابتاً. وقد تتداخل بعض هذه المكونات فيما بينها مثل مكوّن الدين على سبيل المثال.

تتوقف قدرة الأفراد في الانسجام ذواتهم والتكيف مع محيطهم وبيئتهم، وكذلك مقدرتهم على إدارة وتنظيم العلاقة التفاعلية التي تربط مكونات واتجاهات الهوية الشخصية والاجتماعية فيما بينها، تتوقف على فهم الأفراد لمقاييس وقيم ومكونات الثقافة التي يعيشون في بيئتها، وقدرتهم على التماهي معها. فالهوية الاجتماعية تستمد قيمتها وملامحها من ثقافة الجماعة التي ينتمي لها الأفراد. فالهوية كما يراها علي عقلة عرسان في كتابة "الشخصية الثقافية العربية" هي "وجود وإحساس بالوجود، ووعي للذات، وشعو بالتمايز والخصوصية. ولا هوية من دون وجود وشعور بذلك الوجود. وهذا يقوم على وعي للذات ينطوي على إدراك لتمايزها عن الآخر، وخصوصيتها في آن معاً" [41].

الإشكالية التي نرغب في معالجتها هنا هي ما الذي يجري حين ينتقل الفرد من بيئة وثقافة إلى بيئة وثقافة أخرى، سواء كان انتقالاً طوعياً لأسباب شخصية واجتماعية أو دراسية أو اقتصادية، أو كان انتقالاً قسرياً لأسباب تتعلق بالهرب من الحروب، أو وقوع الكوارث الطبيعية. كيف يتعامل المهاجر أو اللاجئ مع بيئته

---

(40) هانوم، كيلي، الهوية الاجتماعية معرفة الذات وقيادة الآخرين، ترجمة خالد عبد الرحمن العوض، دار العبيكان للنشر، ط1، الرياض2009، ص15.

(41) عرسان، علي عقلة، الشخصية الثقافية العربية الهوية والغزو، مجلة الفكر السياسي، اتحاد الكتاب العرب، السنة الأولى، العدد الأول، دمشق1997، ص54.

الجديدة التي لم يكن يعرفها سابقاً؟ ما هي الاستراتيجيات والآليات النفسية والاجتماعية والثقافية التي يلجأ إليها في مجتمعه الجديد، يعد أن يكون قد ترك ثقافته وبيئته التي شكلت ملامح شخصيته وهويته وأفكاره، وعليه الآن التعامل مع ثقافة جديدة؟

عالم النفس الفرنسي كاميلري يرى أن المهاجر يعاني من قضيتين رئيسيتين في محيطه الجديد. أولاً حالة التنازع الثقافي بين قيم ثقافته الأصلية ومفاهيم وثقافة المجتمع المضيف، وهذا يؤثر كثيراً على توازن وانسجام وظائف واتجاهات ومكونات الهوية الاجتماعية للفرد، مما يجعل المهاجر يعاني من ضغوط واضطرابات نفسية شديدة. وثانياً بسبب العلاقة غير المتكافئة بين المهاجر وبيئته، تتولد لديه شعور بتدني الذات والنقص تجاه المجتمع المضيف وأفراده. لذلك فهو يلجأ إلى محاولة استنباط خيارات للتكيف، يسميها كاميري "استراتيجيات الهوية من أجل إعادة الترابط والانسجام" (42).

تذكر عالمة النفس الأمريكية "شيلي تايلور" Shelley Elizabeth Taylor أنه حين يدرك الفرد أو الجماعة الضعيفة الخيارات والبدائل المعرفية للعلاقات الاجتماعية التفاعلية التي تحصل بين الجماعات، فيكون أمامها أربع خيارات أو استراتيجيات يقدمون عليها لإحداث التغير. (43).

الخيار الأول: إقدام الجماعات الضعيفة إلى الاندماج في الجماعة المسيطرة، وهذا الاختيار يستدعي تغييراً ثقافيا لدى افراد المجموعة الضعيفة. والخيار الثاني: قيام المجموعة بإعادة تعريف سمات الضعف في شخصيتها. ثالثاً: اللجوء إلى تبني قيم جديدة لم تكن موجودة في الهوية الاجتماعية، بهدف إجراء مقارنة بين الجماعات. الرابع: هو القيام بالتنافس المباشر مع الجماعة المسيطرة، وهو خيار يقود إلى الصدام الثقافي.

---

(42) P.Dasen, T. Ogay, Pertinence d’une approche comparative pour la théorie de stratégies identitaires. Dans J. Costa-Lascoux, M. A. Hily et G. Vermès (dir.), Pluralité des cultures et dynamiques identitaires : Hommage à Carmel Camilleri , (Paris : L’Harmattan,2000), P 58. (68) Dasen, P 58

(43) زايد، أحمد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد326، أبريل/نيسان، الكويت2006، ص18.

إذن كما يرى كاميلري فإن المهاجر يقدم على استراتيجيتين بهدف إحداث انسجام وتكيف نفسي واجتماعي في واقعه الجديد. تفادي الاصطدام الثقافي، وترميم الإحساس بالدونية. وحتى يتفادى المهاجر الصدام والصراع الثقافي، يقوم بالتخلي عن أحد مكونات هويته الأصلية، إما أن يتنازل عن المكون الأنطولوجي أو المكون البراغماتي. وهي استراتيجية يقرر خلالها المهاجر إما أن يتمسك بثقافته الأم، ويرفض ثقافة المجتمع الجديد، وإما أن يتخلى عن ثقافته ويندمج بصورة تامة مع الثقافة الجديدة. لكن هذا الأمر لا ينجح، حيث لا يستطيع المهاجر التخلي تماماً عن ثقافته، ولا يستطيع أيضاً رفض الثقافة الجديدة كلياً. الأفراد المحافظون والمتشددون يختارون التمسك بهويتهم الأم، وفي نفس الوقت يعاندون لرفض الاحتكاك مع المجتمع المضيف. وعلى النقيض هناك شريحة من المهاجرين تختار التنازل عن هويتها الاجتماعية وتنصهر في المجتمعات الأوروبية. وهناك طرف ثالث يختار أن يتعامل مع الثقافتين بالتناوب Cultural Alternation.

هناك نوع من المهاجرين الذين يتميزون بوعي ونضوج عقلي وفكري ومستوى تعليمي جيد، يقدمون على الاندماج في المجتمعات المضيفة طواعية بوعي وإدراك وعقلانية، ويكون لديهم استعداد للانفتاح على الآخر وثقافته، والاحتكاك، والتبادل، والاستفادة. وهناك نوع من المهاجرين يعاني من تبعات الصدام الثقافي او التوتر الثقافي، لأسباب قد تكون اقتصادية أو سياسية أو فكرية، فيلجؤون إلى تبسيط وتخفيف الصراع الثقافي عبر تجنب أو تخفيف القيم التي تتعارض مع ثقافته الأصلية، والتخفيف والتبسيط من قيمه الأصلية التي تتعارض مع ثقافة المجتمع المضيف. لكن هنا في هذه الحالة يظل صراع الهوية قائماً ولا يتلاشى، لكن يظل الأفراد يحاولون التأقلم والتكيف.

عالم النفس البولندي "هنري تأجيل" Henri Tajfel، والانجليزي "جون تيرنر" John Charles Turner أن الأفراد تكون لديهم "هوية شخصية وهوية اجتماعية. ترتكز الهوية الشخصية على الخصائص الفردية، مثل السمات الشخصية، وترتكز الهوية الاجتماعية على العلاقات الجماعية. وكل منهما تقعان على طرفي متصل، فتبرز الهوية الشخصية إذا كان التفاعل يتم بين أفراد، والعكس أي تبرز الهوية الاجتماعية إذا كان التفاعل يتم بين جماعات" [44].

(44) المصدر نفسه، ص20.

فكل فرد في المجتمع يحتاج إلى صورة إيجابية عن ذاته الأنا، والذات الفردية لها مكونان شخصي واجتماعي، أي هوية شخصية وهوية اجتماعية تعتبر مهمة لحصول الفرد على انطباع إيجابي عن نفسه. لذلك يسعى الأفراد إلى إبراز الصفات الإيجابية والمشرقة عن الجماعة التي ينتمون إليها، بهدف الحصول على مفهوم وصورة جميلة عن ذواتهم.

في المجتمعات المضيفة التي يجد المهاجر أو اللاجئ نفسه أمام ثقافة مختلفة وبيئة وجماعة مختلفة، ويجد نفسه في علاقة غير متكافئة مع الآخر، هذا الوضع يسبب للمهاجر ضغوط نفسية فيلجأ إلى بعض الاستراتيجيات لإعادة الاعتبار لنفسه، منها أن يقوم المهاجر بتمثل قيم وسلوكيات ومفاهيم المجتمع الجديد مرد فعل سلبي بدون وعي، وتسمى الهوية التابعة، وهي تلافي الأحكام النمطية عند الآخر عبر التماهي مع ثقافته. والبعض يرفض تمثل ثقافة المجتمع الجديد، ويتماشون مع الأحكام النمطية لكن ليس بوصفها تقييماً فردياً لهم، إنما بصفتها أفكاراً عن جماعتهم. وبعض المهاجرين يتبعون استراتيجية دفاعية عن ثقافتهم ويتمسكون بها لحماية وتحصين ذواتهم. في بعض الأحيان قد نجد بعض المهاجرين من الجيل الثالث أو الرابع يبالغون في التمسك بثقافة مجتمعات الآباء، ويسميها علماء النفس بالهوية الإشكالية، لكنهم يعتبرون أن تمسك هؤلاء الشباب بثقافتهم الأم ما هو سوى قضية شكلية فسميت الهوية المبدأ. يعتبر جون تيرنر في نظريته تصنيف الذات "هناك أوقات عديدة تستثار فيها الهوية الشخصية، وفي الوقت نفسه قد تتوحد هذه الهوية الشخصية مع جماعة من الناس مقابل جماعات أخرى، فتتحول إلى هوية اجتماعية" [45].

ثالثاً: الاختلاف بين استراتيجيات التثاقف واستراتيجيات الهوية

الاطلاع على كلتا النظريتين يوّلد أسئلة إشكالية متعددة مرتبطة بالاتصال والتواصل الثقافي بين الجماعات والشعوب والأمم، وتتناول النظريتين العوامل النفسية الفردية، من مكونات شخصية وجماعية، ودرجة

---

[45] المصدر نفسه، ص32.

التقبل للثقافات الأخرى والتكيف معها. وكذلك الخيارات والخطوات والإجراءات النفسية والاجتماعية والثقافية التي يقدم على اتخاذها الأفراد اللاجئون أو المهاجرون في مجتمعاتهم المضيفة.

إن استراتيجيات الهوية تخلص إلى أن الاتصال الثقافي قد تؤدي إلى صدام وصراع ثقافي يعاني منه المهاجر أو اللاجئ، سببه التباينات بين الثقافتين. فالأنماط الثقافية للأفراد تشبه المكونات البيولوجية، حيث يعتبر عالم الاجتماع الألماني "ماكس فيبر" Maximilian Carl Emil Weber إن "الثقافة وحدها تقريباً سبب جميع الاختلافات" [46]. أما فيما يرتبط باستراتيجيات التثاقف فإنها تتعامل مع الاتصال والتواصل الثقافي على أنه أمر جيد وإيجابي يوفر للمهاجر وضعاً ثرياً للتعايش معه.

في دول مثل الولايات المتحدة وكندا على سبيل المثال، تعتمدان سياسات للهجرة ترتكز على الاندماج الاجتماعي للمهاجرين Social integration وفق مفاهيم التعدد الثقافيMulticulturalism، واتباع استراتيجيات التثاقف، باعتبارهما دولاً في الأصل قائمة على التعددية العرقية واللغوية. حيث لا يوجد تعارض بين الهوية الشخصية للأفراد، وهويتهم الجماعية. ولا بين هوياتهم الوطنية والهوية القومية التي تجمع كل هذه الهويات المتعددة التي تثري وتغني ثقافة تلك الدول.

أما في دول غربية أخرى مثل الدنمارك وهولندا وبلجيكا وفرنسا، فإن هذه الدول تعتمد سياسة الانصهار والذوبان الاجتماعي للمهاجرين Social melting عبر سياسات تعمل وفق تذويب ثقافات المهاجرين الاصلية وصهرها في بوتقة الثقافة الفرنسية التي لا يقبل المجتمع الفرنسي سواها. فقد شهدت فرنسا ذاتها جدالاً حول ثقافة المهاجرين خلال سبعينيات القرن العشرين، وعن اختلاف ثقافاتهم ومدى اندماجهم في المجتمع الفرنسي. يرى "دنيس كوش" أستاذ الأثنولوجيا في جامعة السوربون "دنيس كوش" Denys Cuche أنه "ليست الثقافة متاعاً يمكن نقله عند التنقل، بل لا تحمل الثقافة كما تحمل الحقيبة" [47]. بل

---

(46) هاريزون، لورانس، صمويل هنتجتون، الثقافات وقيم التقدم، ترجمة شوقي جلال، المركز القومي للترجمة، ط2، القاهرة، 2009، ص53.

(47) كوش، دنيس، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، مصدر سابق، ص183.

أن المهاجرين بحكم انتقالهم إلى مجتمع وبيئة جديدة يلتقون فيها مع أناس آخرون مختلفون ثقافياً "محمولون على التأقلم والتطور" [48].

فيما يتعلق بالمكونات والعمليات التفاعلية النفسية الفردية والدور الذي تحتله في موضوع تكيف وانسجام الأفراد في مجتمعاتهم المضيفة، فإن نظرية استراتيجيات الهوية تعتمد مبدأ المقاربة الفردية لتنظيم وإدارة التباينات الثقافية وآليات التعامل معها، لكنها تغفل دور المجتمع المضيف. بينما في استراتيجيات التثاقف يتم تحديد متى يلجأ المهاجر إلى استراتيجية التماهي أو الاندماج أو الانكفاء الثقافي، وماهي الظروف التي تحيط وتتسبب باختيار أهد هذه الاستراتيجيات من قبل المهاجر ولماذا.

رابعاً: التشابه في استراتيجيات التثاقف واستراتيجيات الهوية

الاستراتيجيتان تؤكدان في موضوع الاتصال والتواصل الثقافي في المجتمعات التي تحتوي على التعدد الثقافي والعرقي، على أهمية الافراد في بناء هوياتهم الشخصية والاجتماعية، وتحديد سلوكياتهم وخياراتهم، من خلال الإجراءات التي يقدمون على تنفيذها سواء كان بصورة واعية أو غير واعية، وسواء كانوا أفراداً أو جماعات، في سعيهم للتكيف والاندماج. فيما يتعلق باستراتيجية التثاقف هي عبارة عن آليات وعملية تحدد موقف الأفراد من ثقافتهم الاصلية، ومثقافة المجتمع المضيف أيضاً، والأسلوب الأمثل للمعيشة التي يختارها المهاجر كما اشرت سابقاً، وهي إما الاندماج، أو التماهي، أو الانكفاء، أو التهميش. فيما استراتيجيات الهوية فهي تماماً منظومة السلوكيات التي تعكس خيارات المهاجر التثاقفية. من هنا تبرز ضرورة الربط الجدلي بين الاستراتيجيتين. فكثر من علماء النفس يعتبر أن الوسيلة الأفضل للتكيف وتخفيف العنصرية هي عبر الاتصال الثقافي المباشر، بهدف جعل الجماعات تتعايش، وتتعلم من بعضها البعض. "فالاتصال المباشر بين الأفراد والجماعات يمثل أحد المناحي المهمة لمواجهة التعصب. ويسهم في تخفيف حدة الأفكار النمطية والاعتقادات الخاطئة" [49].

---

[48] المصدر نفسه، ص183.

[49] زايد، أحمد، سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، مصدر سابق، ص114.